البيان الخالد

هيهات منّا الذلّة

قراءة في البيان الخالد للإمام الحسين (ع)

آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم

مركز المقاوم
للثقافة والإعلام

مركز المقاوم للثقافة والإعلام

almuqawim.net

almuqawim

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

تشكّل كلمة «هيهات منّا الذلّة» التي أطلقها الإمام الحسين «عليه السلام» واحدة من أهمّ بيانات كربلاء، حيث تحدّد طبيعة المنهجية الحسينية في مواجهة الطاغوتية اليزيدية.

ومن هذا المنطلق، يتمحور اهتمام سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم بهذا الشعار الخالد، فهو لا ينحصر عنده في ميادين المواجهة السياسية وحسب، كما قد يتصوّر البعض، وإنما تشكّل كلّ ميادين الحياة ساحته وميدانه، ابتداءً بالنفس والذات وقواها المعروفة بالعقلية والغضبية والشهوية والوهمية -كما في علم الأخلاق-، ومروراً بميادين الأسرة والمجتمع، وفي البيت وخارجه، وليس انتهاءً بالجهاد السياسي بين جبهتي الحقّ والباطل.

إنّ هذا الشعار -في فكر سماحته- فضاء مليء بالمفاهيم الرحيبة، والتي يحتاج المؤمنون اليوم إلى أن يمتلؤوا بها شعورًا، وفكرًا، وثقافةً، حتى يواجهوا بها كلّ التحديات، في مختلف الميادين الحياتية.

ويأتي هذا الإصدار، الذي يضمّ واحدة من أهم كلمات سماحته حول هذا الشعار الخالد، والذي يقرأ فيها سماحته أبعاد الشعار من خلال القرآن الكريم والسنّة الشريفة، كما ويقرأ التحديات التي تعيشها الأمّة، من خلال الأنظمة الرسمية المتآمرة، ليُقدِّم لنا رؤية متكاملة، بأسلوبه البليغ الممتع، من أجل أن يكون هذا الشعار، حاضرًا في الفكر والسلوك والعمل، لا يبرد أبدًا.

مركز المقاوم للثقافة والإعلام
محرّم ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

”هيهات منّا الذلّة“ مُكوِّن رئيس

نص كلمة ليلة العاشر من المحرم ١٤٣٢هـ في المنامة

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الغويّ الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

”هيهات منّا الذلّة“

الحديث يدور حول كلمة له (عليه السلام)، نردّدها كثيراً هي كلمة ”هيهات منّا الذلّة“. الكلمة تقول: لا ذلّة أمام شيء على الإطلاق غير الله، هناك احترام، طاعة مأذون بها من الله، انتظام يأمر به الدين، مراعاة، ضرورات، أوجب أو رخص الإسلام بها، هذا جائز، هذا يمكن أن يأتي به المؤمن كله، لكن الذلّة أبعدُ ما تكونُ عن المؤمن.

”هيهات منّا الذلّة“ كلمة يفرضها الفكر التوحيدي، كلمة ليست سطحية، وليست أمراً عابراً في حياة الإنسان المسلم، وليست ملامستها لقلبه ملامسة خفيفة، كلمة يفرضه الفكر التوحيدي ومشاعر هذا الفكر،

والأخلاقية النابت في ظله، والتربية القائمة عليه، والنفسية المهتدية بهداه، والإرادة الصلبة من صنعه، كل ذلك يفرض على المسلم فرضاً، بل هو ينبع من داخله، بكل رضا واطمئنان وعشق بأن يقول "هيهات منّا الذلّة".

"هيهات منّا الذلّة" مكوّن رئيس من مكوّنات الشخصية الإيمانية، ولا يمكن أن يتخلّف عنها ولا تنبت على حقيقة التامة إلا هي، ولا يمكن تنبت على هذه الأرضية ذلّة أو شيء من الذلّة، في الإسلام لا ذلّة ولا خنوع، ولا تكبّر ولا تجبّر، ولكن عزّة وكرامة وشهامة وإباء.

مسلم بن عقيل كان في أشدّ الأوضاع الذلّة المادية، يقف مأسوراً بين يدي ابن زياد ولا ناصر له، وليس بينه وبين الموت إلا لحظات، والدماء تشخب من كل بدنه، لكن عزته الإيمانية لم تثلم، وبقي الرجل الطود، لا يلين ولا يستكين، ولا تظهر منه كلمة ضعف.

الحسين (عليه السلام) كان مكثوراً بالجيوش الأموية، محاطاً بحالة من الإرهاب الشديد، كل السيوف والرماح وكل أدوات الحرب تتوعّده وتتهدّده بالموت، وليس الأمر كذلك فحسب بل سيعلّق الرأس على قناة الرمح، وتحرق الخيام، وتسبى الفاطميات، ويفقد كل ناصر، ويتوسّد كل أحبته من خيرة أهل الدنيا الثرى وتنتهي المعركة العسكرية في صالح العدوّ الشرس اللدود، لكن كل ذلك لم يتسرب منه ما يفعلُ في قلبه شيء من الذلّة أو الشعور بالهوان.

زين العابدين (عليه السلام) وهو مغلّل بالأقياد، أسير بين يدي الأعداء، تحت رحمة السياط، والفاطميات من جهة أخرى العزيزات

الكريمات الموقّرات العفيفات يتعرّضن لسبي ما كن يتصوّرنه، ولكن الإباء هو الإباء، والعزّة هي العزّة، والكرامة هي الكرامة، والشعور بالثقة كما كان قوياً وفولاذياً ولا يلين، وكان الركب ركبُ السبايا يدرك تماماً أنه أكبر من في الدنيا، ويعيش هذا الشعور، ويغذّيه بهذا الشعور والكرامة والشهامة.

ما هي الذلة التي تتنزّه عنها ساحة الحسين(ع)؟

ما هي الذلّة التي تتنزّه عنها ساحة الحسين (عليه السلام) وكلِ أبيٍّ على خط الحسين (عليه السلام)؟

كما سبق كان فقدُ الناصر، وكثرة العدو، وشراسة بطشه، وكان ما يتهدّد سيد الشهداء من الهزيمة العسكرية المتيقّنة حسب المعطيات الموضوعية القائمة يوم العاشر وفي لحظة القتال، يتهدّده تعليق الرأس على قناة الرمح، إلى آخر الكوارث والمصائب التي كانت في انتظار البيت العلويّ الشهم الكبير.

هل ننكر أن هناك ذلّة مادية خارجية، لا يسع. كان الحسين (عليه السلام) محاطاً بكل أسباب الذلّ الخارجي والمغلوبية على الأمر، أما نفس الحسين (عليه السلام) فكانت تزداد شعور بالعزّة وبالكرامة والشموخ والاستعلاء كلما قرب حين لقائها بالله تبارك وتعالى.

فهناك ذلّتان: ذلّة خارج، وذلّة داخل، ذلّة خارجية يمكن أن يفرضها الخارج عليك قهراً، وهناك ذلّة داخلية تختارها أنت اختياراً، وذلّة الخارج للشريعة فيها رأي كما سيأتي.

ذلّة الخارج معروفة، وما هي ذلّة النفس؟ أن تسترخص نفسك أمام أيّ رغبة أو رهبة، أن تتنازل عن قناعتك الإيمانية، عن إنسانيّتك أمام أيّ ظرف من الظروف، أن تسقط في نظرك؛ لأنك لم تعد تملك القوة المادية الكافية للإجهاز على مقاومك، من أتت عليه من لحظات الشدة، لحظة من لحظات الامتحان الصعب، وشعر بتفاهته، وفقد شعوره بالعزّة فهو ذليل نفسه، وعزّة الداخل التي تقابل هذه الذلّة إذا تمّت لِامرئ لم تملك الدنيا أن تملكها عليه، أو تنال منها شيئاً في داخله، فهكذا كان أنبياء الله ورسله وأوليائه الصادقون.

وللذلّة قاعدة، وللعزّة قاعدة أخرى. قاعدة الذلّة الضعف، وقاعدة العزّة القوة، وذلّة الداخل لا تكون إلا عن ضعف في الداخل، وذلّة الخارج لا تكون إلا عن ضعف في الخارج، والعزّة الداخلية لا تتأتى لأحد أهمل أن يملك قوة الداخل، وهي لا تتيسّر بأيّ حال من الأحوال لامرئ في الخارج، لأمة في الخارج تكون قد قصّرت في طلب أسبابها.

ماذا يقول شرعنا في الذلّة وفي العزّة؟

ماذا يقول شرعنا في الذلّة وفي العزّة؟ يحرمُ الشرع ذلّة الداخل مطلقاً لأنها اختيارية، وحتى لو وجد الإنسان نفسه فاقداً للذلّة في الداخل لضغط الظرف فإن المقدمات المؤسسة لذلك من فعله وتقصيره وهو لا يُعذر. لو بنى نفسه البناء الإيماني الشامخ، واتصل قلبه بمصدر القوة لما جاء ظرف يفقده العزّة ويوقعه في الذلّة، الظروف الضاغطة تعظم في الخارج وتطغى، إلا أن نفساً اتصلت بالله، قلباً انفتح على الله، آمن به، أنشد إليه، عمر بذكره، لا يوجد ظرف من تلك الظروف أن يهزمه، وأن يلين ذلك القلب لضغطه.

فالشرع يحرم ذلّة الداخل، ويفرض عزّة الداخل، وهو من أجل هذا الهدف يبني النفوس على خلاف الذلّة، وإذا وقعت في ذلّة فله منهجه الذي يخلصه منها. أما ذلّة الخارج فهو يمنع من الوقوع فيها اختياراً، ذلّة الخارج كثيراً ما تكون بالاختيار في مقدماتها، الأمّة التي تقصرُ في بناء ذاتها، وفي امتلاك أسباب القوة التي هي قاعدة العزّة، وتختار طريق الضعف، وتعيشُ حالة الكسل والخمول، وتسترخي بالراحة، هذه أمّة إنما تسلك باختيارها طريق الذلّة.

يمكن أن تُغلب أمم من غير أن تكون مقصّرة، ولكن كثيراً ما تكون غلبة الأمم، وضعف الأمم، ثم ذلّها بسبب من التقصير. وليس ما يبني أمّة قوية صلبة شديدة متأبية على الانهيار والضعف كما هو الإسلام، الإسلام ينتشل المجتمع من أحط الوهاد بل من أسفل سافلين؛ ليرتفع به ويبنيه قوياً شامخاً عزيزاً كريماً. ولا طريق للعزّة غير القوة، قوة الداخل تطلب بالصلة بالله، وتربية النفس على منهجه، وبترويضها على الصعوبات، وبالتأمل والتفكر في قيمة الحياة وقيمة الآخرة، في قيمة الإنسان، في قيمة ما يملكه الإنسان، فإذا ترسّخت النظرة الكريمة للمعبود الحق، وللهدف وكبرت النفس وعزّت الآخرة، ونظر الإنسان إلى كرامته، فهذه كلها مناشئ الشعور بالعزّة، والغنى والعزّة والكرامة، هذه عزّة الداخل. وذلّته طريقها هو الطريق لهذا المعاكس، لهذا الطريق.

سيأتي أن هناك من يكون في أعلى درجات العزّة الظاهرية، لكنه فاقدٌ لعزّة الداخل، وهناك من يكون بين يدي عدوّه لا يملك من أمر خارجه شيئاً حتى أن ينظر في هذا الاتجاه بعينه، أو ذلك الاتجاه، لكنه كله فخرٌ واعتزاز، وشعورٌ بالعزّة والكرامة، ويرى في جلاده وسجانه الشيء الوضيع الدنيء، هذا يكون وذاك يكون.

وعند انفصال الخيار بين ذلّة الداخل وذلّة الخارج ماذا يقول الشرع؟ هذا الاضطرار يفرض عليك شرعاً أن تتنازل عن عزّة الخارج وتقبل ذلّة الخارج، وتحتفظ بعزّة الداخل.

تستطيع أن تعيش مقرّباً من الحكم، بعد غضبة منه عليك أيّ حكم جائر؟ وأن تحتل مكاناً لا تحلم بها الملايين عنده، بفقد دينه وفقد ذاتك وقطع صلتك بربّك. وبين أن تحفظ بالعلاقة بالله وموقعك الإنسان، وأن لا تقبل السجود لغيره، لكنك هنا عليك أن تخسر حياتك، أن تعيش أسيراً ذليلاً بين يدي سجّان وجلاّد، عليك أن تختار ذلّة الخارج.

والحسين (عليه السلام) وقف هذا الموقف، إما ذلّة الخارج والاحتفاظ بالدين ونصرة الدين والازدياد في العلو والسمو والرفعة، وتجاوز كل المستويات، أو أن يطلب عزّة الخارج مع الذلّ بين يدي يزيد، والذلّ بين يدي يزيد لا يدخل في تصورك بالنسبة للحسين (عليه السلام) أن يزيد سيعذبه وسيسجنه وإنما هذا الذلّ يتمثّل إعطاء الحسين (عليه السلام) ليزيد رغبته، ليزيد في القضاء على دين الله وتعطيل حدوده، وهذا الذلّ يعني أن الحسين (عليه السلام) يعرف أن مصير الدين مرتبط بحركته وثورته انتصرت عسكرياً أو لم تنتصر، لكن خوفاً من الذلّة الخارجية يتخلّف، هذا ما لم يختره (عليه السلام) وأختار ذلّ ظاهرياً له وللإمام المعصوم من بعد ولكل عائلته ولمن يأتي من شيعته إلى زمن طويل. هذه ذلّة الخارج اختارها الإمام الحسين (عليه السلام) على ذلّة الداخل محتفظاً بعزّته وشهامته وكرامته، التي لا يثبت منها شيء في الانفصال عن أمر الله ونهيه.

الشاعرُ يقول عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) "أقاد ذليلا". هناك ذلّة خارجية ولكن ليست من نفس تعيش الإباء والعزّ والشموخ والرفعة والسموّ والثقة بالذات كما كانت نفس ذلك الأسير (عليه

السلام). ولا تلازم بين الذلّتين، فأعزّ عزيز نفساً قد يذلّه الخارج لكن على مستوى الخارج، وأذلّ ذليل في نفسه قد يظهر بأكبر مظاهر العزّ الخارجي، كثيرون هم أعزّاء الخارج، والذين تتغيّر قناعتهم في لحظة ويتنازلون عن كرامتهم أمام وعد زهيد أو وعيد غير أكيد.

عِـزّة الدّاخِـــل..

هناك رؤساء وزعماء، هناك كبار ويعيشون كل مظاهر العزّ الخارجي، ويحاطون بالعساكر والقوى المدججة بالسلاح ويأتمر بأمرهم الألوف وقد يكون الملايين، لكن كلمة من أوباما تغيّر حال هذا الرجل كل التغيير، وتعدل به عن كل خططه، ويبدي الذلّة بين كلمة من أوباما. هارون الرشيد من على سطح أشرف على سجن الإمام الكاظم (عليه السلام)، فكان أن وجد ثوباً ملقاً على الأرض، سأل السجّان الربيع: ما هذا الثوب؟ أخبره أنه ليساً ثوباً وإنما هو الإمام الكاظم (عليه السلام) في سجدته التي تبتدئ صباحاً حتى الزوال. فتأتي الكلمة من هارون بأنه من رهبان بني هاشم. تبع هذا كلمة السجّان: ولما تشدّد عليه يا أمير المؤمنين؟ قال: هيهات، إنه الملك، معناها هيهات أن أتنازل عن هذا التشدّد، عن إنزال هذه الأذى الأليم بالإمام الكاظم (عليه السلام)،

إنـه الملـك، الرجل مأسـور في داخله لشـهوة الملـك، ذليل أمامهـا. وكثيراً منـا مـن يعيـش منـا هـذه الذلّـة أمـام وعـد بمنصـب، أمـام شـهوة منصب، أو امـرأة، أو بيـت متواضـع. إذا كان هـارون الرشـيد فاقـداً للعـزّة في داخله ومقطونـاً مـن الذلّـة لشـهوة الملـك، فـإن شـهوةً أقـل مـن شـهوة هـارون الرشـيد بمـا لا يقـاس تـأسر الكثيريـن مـن النـاس، والذيـن يترائ لهـم أنهم مؤمنون.

والمؤمـن كل داخلـه يقـول "هيهـات منّـا الذلّـة"، "هيهـات منّـا الذلّـة" شـعار يواجـه بـه المؤمـن نفسـه قبـل أن يواجـه بـه الخـارج، وهـو يسـتمد قـوّة شـعاره الخارجـي مـن قـوة صمـوده أمـام الداخـل.

مسؤولية الأنظمة في سلب العزّة من الأمّة

هنـاك مسـؤوليات ضخمـة تتحمّلهـا الأنظمـة الرسـمية في سـلب الأمّـة عزّتهـا، وفي إيقاعهـا في الضعـف والذلّـة.

نقاط مختصرة تمثّل جريمة من الأنظمة الرسمية، وهي كثيرة والأنظمة الرسمية التي تمارسها ما أكثرها:

١. فصل الأمّة عن إسلامها يقتل فيها روح العزّة الحقيقة والكرامة

العزّة الداخلية ولو حصلت ومعها الوعي؛ لتحتّم حصول الخارجية بطلب أسبابها، في القضاء على منابت العزّة الداخلية وفصل النفس الضعيفة التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة عن مصدر القوّة الحقيقي، وعن مصدر العطاء الذي لا مصدر غيره، لا بد أن يركز الشعور بالضعف في الداخل، وهو أرضية الذلّ الخسيسة في المحيط نفسه وعلى الصعيد نفسه. فالذين يعملون لفصل الأمّة عن إسلامها بإعلامهم ومشاريعهم وسياساتهم من خلال كل الوزارات، إنما يستهدفون فيما يستهدفونه القضاء على الشعور بالعزّة والكرامة في الأمّة، حتى إذا فقدت عزّتها استجابت لكل ما يريدون ولكل ما يخطّطون، ولم تعد قادرة على أن توجّه كلمة إنكار لظالم.

وعوامل العزّة الداخلية إما أن تكون مؤقتة وتؤججها الظروف اللاهبة الخارجية إلى حدٍّ ما، وإما أن تكون أسباب العزّة قائمة في داخل النفس ما دامت النفس. العزّة على المستوى الأول يمكن أن تأتي في حق الشعوب والأمم، أما العزّة على المستوى الثاني فلا يملكها إلا مؤمن صادق الإيمان وأمّة آمنت بربّها حقّاً وصدقاً.

٢. سياسة القمع والإرهاب للأمّة وشعوبها بحيث لا يرتفعُ صوت إلا وأصاب ظهر صاحبه سوط، العدّة في الحكم السجون والتعذيب والمحاكمات وما ماثل، هذا اللون من السياسة الإرهابية عامل إذلال للأمّة، حتى يتحصّل لنخب في الأمّة أن تتربّى على العزّة والكرامة من خلال إسلامها فتتغيّر الأحوال.

٣. المصادرة للكلمة الحرّة الإصلاحية بشتى الوسائل والوسائل لا تنحصر في السوط والسجن والمحاكمة، وأد الكلمة الحرّة المستهدفة للإصلاح لتوعية الأمّة، الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر فيه قضاء على عزّة الأمّة.

٤. التلاعب بثروات الأمّة إضعاف لها وفتح لباب الذلّ عليها، فالأمّة الفقرة، الأمّة المنهوبة لا بد أن يفرض عليها ظرف الفقر لوناً آخر من الذلّة.

٥. أما التبعية للأجنبي، ليس لهوان الأنظمة فحسب، إنما هو إعلان عن هوان الأمّة بكاملها، وما أكبرها جريمة ترتكبها الأنظمة الرسمية في هذا المجال.

٦. الاعتماد على الأجنبي في الغذاء: كل الأمم قادرة أن تتقدم صناعياً وزراعياً علمياً سياسياً إلا هذه الأمّة، ألم تعرف الأمّة نفسها معطاءة، علمية، مبدعة، محلقة، قوية، رائدة، سباقة لكل الأمم في يوم من الأيام، إلا أن الأمة لن تنسى تاريخها، تاريخ المجد والقوّة والكرامة الذي كان على يد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والذي كانت ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) من أجل استعادته. الاعتماد على الأجنبي في الغذاء والسلاح والدواء والصناعة واقع مذلّ، أنت عبد من احتجت إليه، والأمّة لا بد أن تعيش حالة من العبودية لمن كان بيدها غذائها ودوائها وأداة الدفاع عن نفسها، هناك ذلّ آخر وعار آخر وخزي آخر خسيس، وهو انتصار الأنظمة الرسمية بالعدو ضد بعضها البعض.

العزّة والذلّة في القرآن والسنة

القــرآن الكريــم

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾. فاطر: ١٠

يا جماهير الأمّة، يا نخب الأمّة، يا غيارى الأمّة، يا وعاة الأمّة، من أراد منكم لنفسه ولأمّته وعشيرته عزّة فلا يطلبها من غير طريق الله والاستكانة بين يديه، ومن الاستكانة بين يديه التقيّد الكامل الدقيق في الحياة.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾. النساء: ١٣٨-١٣٩، هذا واقع أنظمة إسلامية كثيرة هو أنها تبتغي العزّة من الكافر، ألجأ إلى أمريكا، الأسرار عند أمريكا، الشكوى عند أمريكا، التضحية بالشعوب من أجل أن ترضى أمريكا، التضحية بالدِّين من أجل أن ترضى أمريكا.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ؟﴾، أنت مخطأ ﴿فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ المنافقون: ٨، كان يجد شيئاً من الرصيد الاجتماعي في المدينة أو كان يحسب ذلك، وأنه يملك شيئاً من القوة والأيدي التي ستقف معه ضد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو يتحدّث عن عزّة خارجية، ولكن العزّة عزّة الداخل وكذلك عزّة الخارج "إذا أراد الله بعبد لم يغلبه عليها غالب"، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والمؤمنون بما هم مؤمنون لهم العزّة بصلتهم بالله، والمؤمنون بتقيّدهم الكامل بمنهج الله وطلب أسباب القوة والغلبة هم أصحاب العزّة في الظاهر، وعندما جدت الأمّة وشمّرت عن ساعدها في العلم والعمل أيام حكم المعصومين (صلّى الله عليه وآله وسلّم) توفّرت لها عزّة الداخل والخارج معاً، وكانت سيّدة الأمم داخلاً وخارجاً.

على مستوى الحديث

عـن الرسـول (صـلّى اللـه عليـه وآلـه): **"إنّ الله تعالى يقول كل يوم أنا ربّكم العزيز، فمن أراد عزّ الدارين فيطع العزيز"**، أمـا أن يطيـع الذليـل المسـكين المسـتكين، وإن كان على مظهر كبير من القوة المعتادة، فهذه الطاعـة إن أعطتـه عـزّة ظاهريـة وقـت مـا فهي تـأكل كل عزّتـه في الداخل، ودوام العـزّة حتـى الخارجيـة لا يكـون إلا باتّبـاع منهـج الله، وفي قسـم من منهـج اللـه (عـزّ وجـلّ) يكـون الاتّبـاع عن نيّـة - يشـترط في الاتّبـاع أن يكون عـن نيّـة - ولا تترتّـب نتيجـة الاتّبـاع إلا بهـذه النيّة الصالحـة المخلصة.

أمـا قسـم آخـر عمليّ مـن نهـج الإسـلام يرتبـط بالحيـاة في الخـارج، في بنـاء القـوة، في امتـلاك كفايـة غذائيـة، في امتـلاك صناعـة متقدمـة، في امتـلاك مركـز عسـكري متقـدم، اتّبـاع منهـج اللـه (عـزّ وجـلّ) في ذلـك ولو مـن غـير نيّـة سـيعطي ثمـاره ولـو كان بالنيـة الصالحـة لتضاعـف. والفـارق بيننـا والأمّـة التـي جعلتنـا في الخلـف إلى بعيـد، هـي أنها أخـذت من منهج اللـه هـذا القسـم الأخـير وتعاملـت معـه بجـدّ، وأخـذت بأسـباب العلـم والقـوة، والأخـذ بأسـباب العلـم والقـوة مـن منهـج اللـه ونحـن قـد فرطنـا في ذلـك.

عـن الإمـام عـلي (عليـه السـلام): **"اعلم أنه لا عزّ لمن لا يتذلّل لله، ولا رفعة لمن لا يتواضع لله"**. متـى يرتفـع جبينـك في الخلـق؟ عندما يسـجد للـه سـبحانه وتعـالى، متـى تملـك نفسـاً أقـوى مـن كل ضغـط الخـارج؟ عندمـا تقـف ذليـلاً بـين يـدي اللـه (عزّ وجـلّ).

ومـن دعـاء الإمـام زين العابدين يـوم عرفة: **"وذلّلني بين يديك، وأعزّني عند خلقك"**. وعـزّ اللـه لعبـده العابد لـه، وللأمّـة العابدة له، عـزّ الداخل والخـارج يتنـزّل مـن اللـه بكل كرم وجـود لمن ذلّ بـين يديه.

مـــاذا وراء "هيهـات منّـا الذلّـــة"؟

نص بيان لسماحته في ٣ محرم ١٤٣٧هـ

«هيهـــات منّا الـــذلّة»

شـعار كان مـن الإمـام الحسـين عليـه السـلام كلمـة معلنة صريحـة أمام مـن أراد لـه أن يذعـن لغـير الله في الوقت الـذي جدّ فيه خطر هـذه الكلمة كلّ الجـدّ بمـا لا ريب فيه.

كـما كان منـه عليـه السـلام فكـرة واضحـة كل الوضوح الذي لا شـوب فيه مـن غمـوض أو تـردّد... فكرة راسـخة متجـذرة بجذر إيمانـه وتقواه.

وهكذا كان عزماً ليس من فوقه عزم، وتصميماً لا يفوقه تصميم.

وكان موقفـاً عمليّـاً لا تراجـع عنـه، ولا يمسَّـهُ اهتزاز أمام أعنـف الظروف، وأخطـر الخطـر، ولا يلوي عنـه تهديد جـدّي بالموت.

شعار استحق في وعي الحسين «عليه السلام» وإيمانه وإرادته أن يتخذه محوراً في كل المواقف والخطى والمنعطفات، وأمام أيّ بركان وزلزال.

كان وراء هذا الشعار الثوري الصارخ الراسخ خلفية إيمانية لا ينالها اهتزاز، وانتماءٌ لا شرف يعادل شرفه... انتماء العبودية الصادقة الشاملة في خضوعها للربوبية الحقَّة الكاملة.

عبودية تعيشها نفس الإمام الحسين «عليه السلام» وعياً ورضى واعتزازاً وعشقاً وذوباناً وتعلقاً وهياماً في الحب لربوبية الله وجلاله وجماله.

شعار وراءه تلك الخلفية وذلك الإنتماء وهما مصدره الذي لا تعرف نفس الإمام الحسين عليه السلام انفصالاً عنه، ولا يأتي عليها ميل عن خطّه الكريم.

وهو شعار كان قد تغذَّى به شهداء كربلاء من أهل بيت الإمام وأنصاره، والمرأة والطفل ممن كان مع الحسين عليه السلام. وكان الإقبال فيهم على مائدته بشهية روحيّة ونفسية عارمة، وإقبال شديد منقطع النظير، وذلك عن وعي ورشد وإيمان وعشق للإمام الحسين عليه السلام وقيادته وأصالة الشعار.

وما كانت الخلفية التي تغنى بها روح الإمام عليه السلام لشعار هيهات منا الذلة في حاجة إلى إضافة أو مزيد.

ومع ذلك كان الرفضُ النابع من الذات لعيش الهوان والذلة حيث يعني الافتراق عن طريق الله والدخول في طاعة اللئام والعبودية للعبيد، وزاد كبير من عطاء حجور طابت وطهرت، ووراث حميدة، وتربية عالية رشيدة، وروح تزودت من ذلك كله إباء وشهامة، واعتزاز بالكرامة، وهي معان كانت من الغرس الإلاهي في فطرة أهل العصمة عليهم السلام، ومن وحي انتمائهم الصادق إلى خط الله.

وأيّ ذلة تلك التي على مريدها من الإمام الحسين عليه السلام أن ييأس، والتي لا مكان لها في نفسه، ولا تدنو من نفس وراءها خلفيةُ الوعي والإيمان التي كانت تغنى بها نفسية الإمام الحق المختار من الله العليم الخبير؟

العزُّ عزٌّ ظاهر وباطن... عزُّ مال وجاه وسلطان، وعزُّ ذاتٍ تجده من تعلق بالله ومعرفته.

والغنى بالعزّ الباطني للذات لا يبقى معه بريق للعزّ الظاهري، ولا للظهور في الناس مع ما تجده من ذلك العزّ النفس الذي تعمر به.

والذلة ذلّتان كما هو العزّ عزّان: ذلّة نفس وهوانها، وذلّة من افتقارِ يدٍ، وفقد موقع، وتضييقٍ من عدوٍّ لدود.

وهذا الذلّ لا يجعل من معتز بالله حقّاً يشعر بالهوان في داخله، ولا يملك أن يُرخص من قيمة نفسه، وأن ينال من معنويته.

تـراه معتـزاً بذاتـه، بانتمائـه، لا يسـاوم عـلى شيء منهـما، ولا يجـد ثمناً مـن الدنيـا يغريـه بالتنـازل عـن كرامتـه بمفارقـة مـا هـداه إليـه إيمانـه مـن طريق.

ومـا رضيـت نفـس بالعـزّ الظاهـري واكتفـت بـه، وكان كل لهثهـا إليـه، واطمئنانهـا بـه إلّا لفقدهـا مـا هو العزّ الحقّ الأسـمى، والـذي تجده النفس المؤمنـة العاليـة مـن صـدق عبوديتهـا وتعلقهـا باللـه، والتـي لا أنـس لهـا بعـز يخسرهـا مـن عزهـا بـه سـبحانه شـيئاً.

وتقديـم العـزّ الظاهـري بالمـال والجـاه والأتبـاع والمواقـع الدنيويـة اللامعـة يصاحبـه ذل تعيشـه النفـس من نتاجه حيث يهون عليهـا التنازل عـن كرامتهـا وشرفهـا ومقدَّسـاتها مـن أجـل ذلـك العـزّ المأسـورة لهـواه. وهـذا مـا كان عليـه الواقفـون في مواجهـة أبي عبـد اللـه والمحاربـون لـه، وعبيـد الدنيـا في كل مـكان وزمـان.

إن نفـس العبـد مـن عبيـد اللـه إمّـا أن تُقرِّبهـا الطاعـة لـه فتغنى بعـزّ من عـزّه، وتسـتغني بـه، وإمَّـا أن تبعِّدُهـا معصيتهـا عنـه فتـذل وتخزى.

نقـرأ مـن مناجـاة التائبـين في الصحيفـة السـجّاديّة: "إلهـي ألبسـتني الخطايـا ثـوب مذلّتـي، وجلّلنـي التباعـد منـك لباس مسـكنتي وأمـات قلبي عظيـم جنايتـي".

فنفـس تأخـذ بالمعـاصي فتبعُـدُ عـن اللـه عـزّ وجـلّ ترتكـس في الـذلّ، ويلبسـها ذلـك ثـوبَ الهـوان والمسـكنة حتـى تسـترخص ذاتهـا فتجـد لمـا

بيد العبيد من أشياء الدنيا قيمة أكبر من قيمتها، وأغلى من الاحتفاظ بشرفها ومقدساتها.

وإذا عظمت الجناية وكبر الذنب وتكثر مات القلب، وليس من بعد موته شعور بمكانة للذات والكرامة، ولا اعتزاز بمعنوية إنسانية عالية.

بعد موت القلب نفس صاحبه نفس حيوان، وبهيمة تدخل كل مدخل سيء مهين من أجل لذائذ دنياها.

وكيف لا تهون نفس على صاحبها أمام أهل المال والجاه والسلطان والنفوذ وهي لا تجد باباً من دونهم تلوذ به، ولا قدرة تحميها، ولا غنى يكفيها ويثريها إلّا مما في يدهم وعن طريقهم؟!

وكيف تذل نفس أمام شيء مما في يدي الآدميين وهي تؤمن أن القوة لله وأنّ العزة لله وأن كل الأمر بيده.

واهمٌ من كان يطلب العزَّ وأسبابه من غير الله ومما في أيديهم وهذا ما تدركه النفس اليقظة فلا تجد من تلوذ به أو تعوذ حين تفرّط في علاقتها بالبارىء تبارك وتعالى وتطرد من حريم رحمته، وتحل عليها نقمته، ولكن ما لمن خسر علاقته بالله إلّا أن يقع في ظلمة الوهم فيطلب ما لا يملكه غيره سبحانه من عند من سواه.

تقول المناجاة: "فإن طردتني عن بابك فبمن ألوذ، وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ؟!".

لنعلم أنّ «هيهات منّا الذلّة» شعار لا يصدق في النفس إلا بمقدار مالها من إيمان الحسين «عليه السلام»، وتربيته، وجهاده على طريق الكمال في اتجاه الله القوي العزيز.

وهو شعار إذا صدق معه الناس وأخذوا بطريق الشرع، وانتهجوه في حياتهم صلحت الأوضاع، واستعيدت الكرامة، وعمّ العدل، واستقامت مسيرة الحياة.

«هيهات منّا الذلّة» لا يمكن أن يصدق من عابد مال أو جاه، أو موقع من مواقع الدّنيا المغرية، أن لا يصدق ممن يرى أن غناه وقوته وحمايته وخيره وشره بيد غير الله سبحانه.

هذا المخلوق بين أمرين فإما أن يذل لله سبحانه فيشعر بالعزّة في قبال من عداه، وإمّا أن ينسى الله فيذل لكل من سواه وما سواه ذلاً يعيشه في داخله، وهواناً يملأ أقطار نفسه.

و«هيهات منّا الذلّة» شعار لكل مسلم صادق الإسلام، مؤمن بربه تبارك وتعالى حقّ الإيمان... شعار لا يستوحشه مسلم ولا ينكر عليه.

«كــان وراء هذا الشعار الثوري الصارخ الراسخ خلفيّة إيمـــــانيّة لا ينالها اهتزاز، وانتماءٌ لا شرف يعادل شرفه... انتماء العبوديّة الصّادقة الشّاملة في خضوعها للربوبية الحقَّة الكاملة».